العامل والصوت
بين الوظيفة النحوية والصوتية

د/ شفيقة العلوي

مقدمة:

إن موضوع العمل واسع ومتشابك قد أثار الجدل منذ القديم وحرّك هِمم الباحثين ونفض عن آرائهم غبار السكون، فامتدّت لجاجتهم، وانتشرت أفكارهم بين محاولة إنكار العامل وعمله وسعي لتأصيل فكرة التأثير النحوي (أي العمل) في أذهان المتعلمين والناظرين في النحو العربي على حدّ سواء.

وأمّا الفكرة أو الفرضيّة التي قد تبدو غريبة للبعض والتي نودّ إثباتها والتّدليل على صحتها في هذا المقال، هي أن فكرة العامل والعمل ليست وليدة الدّرس النحوي، بل إنّها ظهرت قبله من خلال تلك الآراء اللغوية وبخاصة الصوتية التي قدّمها العلماء العرب الأوّلون بغية الكشف عن تآلف حروف الكلمة وعدم تنافرها، ومن خلال استعمال ودوران الكلمات في اللسان الدارج وتفاعلها وتأثّر بعضها ببعض تأثرا هندسيا يعكس سلاستها وفصاحة لفظها. أفلا يؤكد هذا أنّ العامل في النّحو هو امتداد، إنْ لم نقل هو وليد العامل اللغوي في الحركة والصوت؟!

ثمّ إنّ حياة المرء نفسها لتثبت بأنّ التّفاعل بين الناس طريقٌ لتواصلهم وتعاونهم، حتى قال الشّعراء:

"عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه   فكلّ قرين بالمقارن يقتدي"

وقالوا "قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت".

فلا يمكنهم قط(أي الناس) العيش منفصلين متباعدين. لأنّ فرد يؤثّر في الآخر تأثيرا ماديا أو معنويا، فيكتسب منه الصفات والعادات والأفكار.

والألوان بدورها تتفاعل فيتولّد منها مزيج (فالأحمر والأزرق يولّدان البنفسجيّ مثلا والأبيض والأسود ينتجان اللون الرمادي وهلمّ جرا). والأشجار تتلاحم والرياحَ فيتمّ التلقيح.

إنّها تفاعلات الحياة تنقل ضروب التّأثير والتأثّر. وتولّد صورا جديدة وبنيات متمايزة.

والكلام البشري تواصل لساني صوتيّ لا يحيد عن هذا القانون الطبيعي الفيزيائي.

فهو أصوات ناتجة عن قرع أو قلع. تحدث اهتزازات ترددية تموّجيّة ينقلها الهواء الطبيعي الذي يُعدّ ناقلا مثاليا للأصوات نحو أذن السّامع. فيتمكّن بذلك من التّواصل مع غيره. وما دام الأمر كذلك، فإنّ الأصوات المتجاورة في السلسلة الكلامية الخطيّة الواحدة تتأثّر ببعضها متفاعلة، تمتصّ بعض خصائصها الفونولوجية، فتتولّد عنها بنية صوتية جديدة مخالفة لأصل وضعها. فإذا كان الأمر كذلك، فإنّه يمكن القول إنّ العامل وَهُوَ العنصر المؤثّر في الكلمة المفردة الذي يسقط عليها وظائف نحويّة متباينة وعلاقات متمايزة هو امتداد للعامل الصوتي/ اللغوي، المؤثر بدوره في حروف الكلمات المتجاورة.

وللبرهنة على هذه الفرضيّة سنحاول الوقوف عند الصّوت (الحرف) ومفهومه لغة واصطلاحا ثم نعرّج إلى العامل ونظريته بالوصف والتحليل. وأخيرا ندرس إمكانية تآلف الصوت/ الحرف مع مبدأ العمل.

الصوت: المفهوم:

لقد عرّف العرب الأصوات ومارسوها في الكلام الذي لا يحصل إلا باجتماعها وتضامها مؤلفا الفائدة. ولكنهم لم يذكروها في تصانيف ومؤلفات تؤصّلها وتحدّد معالمها وتوضّح ملامحها إنّ غياب علم للأصوات في البيئة اللغوية العربية لم يمنع من وجود إسهامات صوتية أوّليّة وبحوث لها أواصر انتساب للفونيتيك (علم الأصوات).

وليس هذا بالأمر العجيب الغريب، فقد كانت موضوعات النحو موجودة في كلام اللغويين مثل حبيب بن يونس وغيره، قبل ظهور سيبويه بمؤلفه (الكتاب) قرآن اللغة العربية وعمادها.

ولا يعدّ الاهتمام بالصّوت ضربا من اللّغو أو السّفه، ما دام (أي الصوت) هو مادة كلام اللاسن، هو ذبذبات ناجمة عن عملية قرع الهواء. فهذا الصّوت الفيزيائي غدا اليوم مادة علمية بشريّة، يتناولها الكثيرون اليوم من أجل التّعرف على قوانينه وكيفيات نشأته وتحولاته وطريقة التّلفّظ به وإدراكه.

إنّ الصّوت عند علماء العربية أثر سمعي غير ذي معنى يصدر عن تلك الأعضاء المسماة تجوزا جهاز نطق. فكل (**ما خرج من الفم إن لم يشتمل على حرف فصوت**)[(1)].

وهو يتميّز بخصائص أهمها:

1. إنّه عرض أي هواء متغير (**يخرج من داخل الرئة مع النفس مستطيلا أملس متصلا بمقطع من مقاطع الحلق واللسان والشفتين**) [2] فكلّ هواء – إذًا- يصدر من محله أي من داخل الصّدر – الرئتين – يعدّ صوتا.

2. إنّ الصّوت – كما يرى ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة يحتاج إلى أربعة أشياء أساسية تجتمع كلها لتنشئه وهي:

المادة + الحركة+ المحل + الهيئة

– فمادة الصوت هي الهواء أي الذبذبات أو التموجات الصوتية التي تنتشر في الطبيعة وتخترق المجال السمعي للأذن فيدركها العقل، ومن ثم يتواصل السّامع والمتكلم.

– وأمّا الحركة فهي جملة التّغيّرات التي تطرأ على الهواء منذ صدوره من الرئتين حتى وصوله لأذن السامع مشكلة جرسه ورنينه، أي صفاته وهويته الفونولوجية (أي المخرج والصفة).

–وأمّا المحلّ، فهو منشأ الصّوت أي مخرجه.

–وأمّا الهيئة فهي صفاته من جهر وشدة وهمس وغنة وصفير وترقيق أو تفخيم إلخ.

3. الصّوت من فعل الإنسان وقصده. فهو إرادي ومعقول (**لأنه يدرك**)[3]

(ومن أراد أن يكون له صوت طويل... فليتعمد ذلك ويجتهد في جمع الهواء حتى يكون إرساله على حسب ما اجتمع فيه فيدرك بذلك ما يريد)[4]

4. **للصّوت شكلان وهما:**

- صوت منطوق مفهوم مسموع معقول، إن كان مسببه والمحرك له الإنسان.

- وآخر غير قصدي مجرد من المعنى إن كان صادرا عن حيوان غير عاقل. يقول إخوان الصفا: (**وأصل الأصوات في الرئة هواء فيدبره اللسان على حسب مخارجه. فإن خرج على غير حروف لم يفهم وكان كالنهاق والسعال)**[5]

5. إن للسان دورا رئيسا في إحداث الأصوات وتنوعها. فبسبب حركيته داخل القناة الصوتية (الجهاز النطقي) يتحدّد نوع الحرف. ومن ثمّ يتألف اللفظ والكلام. وهذا ما توصّل إليه إخوان الصفا في زمن سابق للفونيتيك، حيث جاء (**فإن ردّه اللسان إلى مخرجه المعلوم في حروف مفهومة سمي كلاما ونطقا)**[6]

6. الصّوت ناتج عن القرع أي عن اصطدام جسمين يهتزان. وقد تنبّه إلى هذه الحقيقة العلمية الهامة لغويونا القدامى. فلاحظ ما يقوله إخوان الصفا: (**الصوت هواء يتقلّب بين جسمين متصادمين بعنف، فيصكّ الهواء الرّاكد في آلة السّمع**)[7]. للصّوت – إذًا – حركية مستمرة تبدأ بمجرد صدور الهواء من الرئتين ثم اصطدامه العنيف بجسم آخر قد يكون أحد أعضاء الجهاز النطقي كالحلق، الشفتين واللسان إلخ. فحيثما وقع الصّدم نشأ الصّوت ثم استمر في حركيّته متدفّقا من الفم إلى الخارج، حيث يهزّ الهواء العضوي الراكد في الأذنين (وهذا نمط آخر من الحركيّة)؛ فتحدث إثر ذلك العملية السمعية. ومن ثمّ الإدراك العقلي للرسالة السّمعية.

إنّ لهذا التّصادم الموجب للصّوت شروطا هي: أن يكون عنيفا شديدا، سريعا ومفاجئا (... وإنّ **كلّ جسمين تصادما برفق ولين، لا تسمع لهما صوتا... وإنّما يحدث الصوت من تصادم الأجسام متى كان صدمها بشدة وسرعة. لأنّ الهواء عند ذلك يندفع مفاجأة ويتموّج بحركة فيحدث الصّوت ويُسمع**)[8].

7. الصّوت عرض ليس جسما ولا صفة لجسم. ودليل ذلك أنّه مدرك بحاسة السّمع. فلو كان جسما أو آلة لغدا ملموسا مرئيّا، ولو كان صفة لكان صفة ذاتية ملازمة لذالك الجسم. وهذا غير واجب في العملية النطقيّة الكلاميّة.

فقد ثبت علميّا ونطقيّا أنّ لكلّ صوت صفته[9].

الحرف:

إنّ الحرف مصطلح قديم ظهر قبل الخليل الفراهيدي وسيبويه معا. فقد ورد ذكره في الأوراق المنسوبة لأبي الأسود الدؤلي حين قال: (**إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة...**)[10]. وقد استعمل هنا الحرف بمعنى الصوت. وهو المعنى الذي يستمر متداولا عند الخليل الفراهيدي في معجمه العين. حيث جاء على لسانه: (**فإذا سُئلت عن كلمة وأردت أن تعرف موضعها فانظر إلى حروف الكلمة**).[11] وقد حاكاه في الاستخدام تلميذه سيبويه، فقد وحدّ بين المصطلحين (الحرف والصوت). إلا أنّ ثمة بونا بينهما، فالصّوت كما يقول ابن جني في سر صناعة الإعراب (**الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا أملس حتى يعرض له في الفم والشّفتين واللّسان مقاطع تثنيه عن امتداد واستطالته، فيسمى الصّوت حيثما عُرض له حرفا**)[12].

ومن هذا النّص يتّضح جليّا أنّ الحرف هو آخر مرحلة من حركية الهواء المشكّل للصوت. إذ ينشأ الحرف بمجرد قطع الهواء عن الامتداد أي بمجرد حبسه، فتتشكل إذ

ذاك هويّتُه أي حقيقته الفونولوجيّة التي تمكّنه من أداء دوره في الكلام وهو تغيير المعاني إذا ما استبدل بآخر. فيغدو بذلك حرفا وظيفيّا.

إنّ الحرف صوت، وليس كلّ صوت حرفا، فإن كان محركّه الإنسان غدا حرفا وإن كان مُنشئه الحيوان غير العاقل أو الآلة أو الطبيعة كالريح والرعد فهو مجرد صوت مبهم لا هويّة له.

فمعيار حصول الحرف ثنيه عن الامتداد، أي حبسه في محله. وهي الحقيقة التي أكّدها فخر الدين الرازي حين قال: (**الحروف إنما تحدث عند إخراج النفس من داخل الصدر إلى الخارج. فالإنسان عند إخراج النَّفَس من داخل الصّدر يحبسه في المحابس المعينة ثم يزيل ذلك الحبس، فتتولّد الحروف في آخر زمان حبس النَّفس وأوَّل زمان إطلاقه)**[13]

خاصّيات الحرف:

إنّ لنشأة الحرف مسبّبات لا يحصل إلا بها وهي:

❖ وجود إنسان متكلّم ناطق عاقل.

❖ إرادة لإنشاء الحرف /الكلام.

❖ محابس أي أماكن يقطع فيها الهواء عن الحركة والجريان.

❖ صفات أي هيئات يكتسبها الحرف من مكان الحبس. وهي الأجراس التي تلتقطها أذن السّامع فتجعله قادرا على التّمييز بين المعاني وفهم الرسالة السّمعيّة. فيشارك حينها في بناء وإنتاج الخطاب، ومن ثمّ في التواصل البشريّ الاجتماعيّ.

❖ زمن الحبس. ونعني بذلك أنّ الحرف لن يسمع إلا بعد زوال القطع (الحبس) وليس في أثنائه. لأنّه ساعتها يكون قد خرج إلى الوجود المادي أي إلى الفضاء الفيزيائي، فتلتقطه إذ ذاك أذن السامع المثالية الخالية من الشوائب كالأمراض والغبار وثقل السّمع.

❖ من المعروف عند اللغويين العرب والدّارسين المحدثين على حدّ سواء أنّ الحرف مشترك لفظي. فقد استعمله العرب بمعنى الصّوت تارة، وبمعنى الرّمز الكتابي تارة أخرى. وقد ظهر المعنيان معا في كتاب سيبويه. فأمّا الحرف بمعنى الصّوت فقد استعمله في قوله: (**هذا باب عدد الحروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها)**[14].

وأمّا الحرف بمعنى الرمز الكتابي الخطي المقروء، فقد شمله قوله: (**وإنّما وصفت لك حروف المعجم...)**[15]

إنّ هذه المسألة تنبئ عن عدم تفريق علماء العربيّة بين الاصطلاحات. ومردّ ذلك إلى أنّ كلّ اللّغات لا تتوافق كتابتها مع منطوقها ، أي لا يحاكي اللفظ الخط. ورغم هذه الجدليّة، فإنّ الإجماع قد حصل وإن حديثا ، فالحرف امتداد للصوت وآخرُ مراحل تطوره. حين يتشكّل له الجرس (أي الصفة) من المحل المعلوم أي المخرج المعين (**فالحرف صوت مقروع من مخرج معلوم**)[16].

فالحرف- إذًا- هو حصيلة المعادلة التالية: صوت (هواء + حركة+ محل) قطع أي حبس ←ـــــــ صفة ←ـــــ حرف

هذه نظرة لسانيّة وصفية موجزة لنظريّة الصّوت في الدرس اللّغوي تكشف عن خاصياته التي تمكنه من أداء وظائف صوتية متنوّعة – كما سيتمّ تفصيله أدناه -

مفهوم العامل لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور، أنّ (العامل هو الذي يتولّى أمور الرجل في ماله وملكه وعمله. والعمل: المهنة والفعل وأعمل فلانٌ ذهنه بكذا إذا دبرّه بفهمه، وأعمل رأيه ولسانه وآلته واستعمله عمل به[17])

العامل اصطلاحا:[18]

لقد وردت في تعريف العامل اصطلاحا أقوال كثيرة لكنها متّفقة على أنّه المؤثّر[19] (اعلم أنّ العوامل جمع عامل وهي كلمة تعمل والعمل هو التأثير في المعمول لفظا أو تقديرا من رفع ونصب وجرّ وجزم... وتلك العوامل أعمّ من أن تكون فعلا أو حرفا أو اسما، فالأفعال كلّها عاملة، لأنّ الكلمات تستحقّ الإعراب بالمعاني الموجهة له وهي الفاعليّة والمفعوليّة والإضافة).

وأمّا (الإعراب فهو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليه لفظا أو تقديرا)[20]

فالإعراب إذًا لا يقوم إلا على نظرية العامل التي تعدّ عماد النّحو العربيّ، فما الفاعل إذا رُفع أو المفعول إذا نُصب أو المضاف إليه إذا جُرّ إلا نتيجة العوامل الداخلة على الكلمة والمؤثرة فيها لفظا ومعنى ومحلا. ويعدّ سيبويه إمام النحاة أجمعهم، هو أول من أرسى دعائم هذه النّظريّة وصرّح بوجودها علنا حين قال: (... وإنما ذكرتُ لك ثمانية مجارٍ لأفرق بين ما يدخله ضربٌ من هذه الأربعة لِما يُحدث فيه العامل وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه، وبين ما يُبنى عليه الحرف بناءً لا يزول عنه بغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكلّ منها ضرب من اللفظ في الحروف، وذلك الحرف هو حرف الإعراب)[21]

أنواع العوامل:

قسّم النّحاة العوامل إلى ثلاثة أقسام: أفعال، أسماء وحروف، فالأفعال التّامة والنّاقصة والجامدة وأفعال القلوب هي الأصل في العمل. وأمّا الأسماء، فيعمل منها ما كان شبيها بالفعل كاسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة وأفعل التفضيل. وهذه كلّها من المشتقات. وقد يكون الاسم العامل جامدا كأسماء الأفعال ترفع الفاعل (هيهات النجاحُ)، وتنصب مفعولاً (دراكِ زيدًا) وصاحب الحال والمميّز والإضافة. وأمّا الحروف العاملة، فهي أنواع كحروف الجر والحروف المشبهة بالفعل وأن المصدرية، وأخواتها الناصبة للفعل المضارع، وحروف الجزمّ بنوعيها الخفيفة كَلَمْ أو الثقيلة (كإنْ الشرطية).

كما قسّموا هذه العوامل إلى قسمين: عوامل لفظية وأخرى معنوية... ولقد أضاف الدكتور مهدي المخزومي إلى هذين العاملين الرئيسيين عوامل ثلاث أجملها في:

1- **العامل الفلسفي**: وهو العامل الذي اقتبسه النّحاة من كلام المتكلّمين في العلّة.

2- **العامل التّوقيفي**: وذلك أن ابن مضاء القرطبي الذي يُعدّ من الجبرية لا ينسب شيئا من أفعال الإنسان الاختيارية إلى الإنسان نفسه، بل إلى اللّه تعالى، خالق كل شيء. فنسبة الإعراب إلى المتكلّم كما نصّ عليها ابن جني باطلة، لذلك كان يقول[22] (إنّ مذهب أهل الحقّ أنّ هذه الأصوات إنّما هي من فعل اللّه تعالى، وإنّما تنسب للإنسان كما ينسب إليه سائر أفعاله الاختيارية).

3- **العامل اللّغوي**: ويُقتبس هذا النّوع من إدراك الظواهر اللغوية سواء منها ما اتّصل بأبنية الكلم أم ما اتّصل بتأليف الجمل. وهذا العامل اللغوي ليس جديدا بل هو قديم، تبدأ قصّته بأعمال الأوّلين كالخليل الفراهيدي والفراء. والذي يتتبّع الخطوات التي خطاها الخليل الفراهيدي في دراسته للغة العربية وبناء معجمه العين، يُدرك أنّ نظريّة العامل اللغوي لاحت في كلامه. فقد التفت إليها حين أخذ في دراسته تآلف الأصوات اللغويّة، فلاحظ أنّ بعض الحروف تِؤثّر على البعض، وأنّ الموسيقى الدّاخليّة لا تتأتّى إلا إذا كانت الحروف متآلفة، منسجمة على نظام خاص. ولقد أجمل حدود هذا النّظام بألاّ تكون الحروف من مخرج واحد أو من مخارج متقاربة، متجاورة (فقدْ جاء عنده إنّ القاف والكاف تأليفهما معقوم لقرب مخرجيهما)[23] لأنّ القاف لهويّة والكاف صفاقيّةُ المولد.

هـذه إذًا أهـمّ العوامـل الـتى حصـرها النّحـاة اللّغويّـون، قـديما وحـديثا، وهـي مبثوثـة في كتبهم. وقد حدّدوا لها قواعد، تضبطها منها:

– إنّ العامل لابدّ من وجوده، فإن لم يكن موجودا قُدّر.

– لا يجتمع عاملان على معمول واحد (وهذه القضيّة هي أساس باب التّنازع).

– إذا وُجد معمولان وعامل واحد، قُدّر لأحد المعمولين عامل، وهذا أساس باب الاشتغال.

– إذا كان العامل قويا أمكنه التّأثير متقدما كان أو متأخرا، فإن كان ضعيفا فلا يعمل إلا متقدّما كالحروف.

– وأخيرا، لا يُفصل بين العامل ومعموله بأجنبي، إلا ما ذكره ابن جني من ضرورات شعرية، حصرها في كتابه الخصائص[24].

العاملُ: الصوتُ وموقف القدامى منه:

أ- عند اللغويين: إنّ النّحاة العرب ليسوا أوّل من تنبّه لفكرة العمل. وليسوا أوّل من تفطّن إلى أنّ الحركة الإعرابيّة إنّما تعدّ أثرا ناتجا عن مؤثّر سابق قد عمِل فيها، فغيّرها وظيفيا.

فالخليل الفراهيدي المعجمي الأوّل، كان أوّل من أشار إلى فكرة التأثير الصوتي، حين تحدّث عن انسجام حروف الكلِم*. وإذا عُدنا لكتاب سيبويه ج 278/3، في باب تسمية "الحروف بالظروف وغيرها من الأسماء، لألفيناه يقول: [25](فأمّا ما كان آخره راءً، فإنّ أهل الحجاز وبني تميم فيه متفرّقون، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز.... والحجازيّة هي اللّغة الأولى القُدامى").

ويفسّر السيرافي هذا القول الغامض إلى حدّ ما، في هامش الصفحة نفسها قائلا: (يعني ذلك أنّ بني تميم تركوا لغتهم في قولهم هذه حضارٍ وسفارٍ وتبعوا لغة أهل الحجاز، بسبب الراء... وذلك أنّ بني تميم يختارون الإمالة وإذا ضمّوا الرّاء ثقلت عليهم الإمالة وإذا كسروها خفّت أكثر من خفتها في غير الراء. لأن الراء حرف مكرّر. والكسرة فيها مكررة كأنها كسرتان. فصار كسر الراء أقوى في الإمالة من كسر غيره، وصار ضمّ الراء في منع الإمالة أشدّ من منع غيرها من الحروف. فلذا اختاروا موافقة أهل الحجاز...)[26]

فالإمالة إذًا عامل صوتي، قد أثّر في حركة الراء في مثل حضار وسفارٍ، وذلك أنّ هاتين الكلمتين وردتا مرفوعتين، فأُثبتت الضّمة في آخرهما. ولا يمكن، بل يصعب على المتكلم أيًّ كان النّطق بالألف المفتوحة معقوبة بضمة لعدم تجانس الحركتين، فالأولى ألف خفيفة

ينفتح فيها اللّسان نحو الحنك الأعلى ويُضمّ. فلا تجتمع إذ ذاك هاتان الحركتان، لذلك تبدل هذه الضمة كسرة لتخفيف الكلفة على اللسان الدارج عن طريق فعل الإمالة الذي يؤثر في الراء المضمومة، فتحرّف عن أصلها وتُمال نحو الكسرة اتّقاءً للثقل ومجانبةً للإجهاد العضلي.

فالراء كانت مضمومة ثمّ أُميلتْ نحو الكسر لوجود الألف. فالألف إذًا أثّرت في الضّمة وعملت فيها. ونتيجة التّأثير والتّفاعل الصّوتي هو الإمالة. فالإمالة عامل صوتيّ قد أثّر في الحرف وغيّره. ولئن لم تكن مؤثرة حقا، لظلّت الراء على حالها من الضمّ والثقل. وهو الحكم الذي يجنح إليه ابن جني حين حديثه عن هجوم الحركات على الحركات[27] إذ يقول[28]: (ذلك على ضربين أحدهما كثير مقيس والآخر قليل غير مقيس. الأول منهما وهو قسمان: أحدهما أن تتّفق فيه الحركتان والآخر أن تختلفا فيه، فيكون الحكم للطارئ منهما على ما مضى): وفي قوله هذا إشارة إلى عمل الحركة على الحركة وهذا تأثير صوتي. فمثل: يغزُوُون، أُسكنت الواو الأولى التي هي اللام وحذفت لسكونها وسكون واو الضمير والجمع بعدها، ثم نُقلت تلك الضمة عن اللام المحذوفة إلى الزاي التي هي عين الكلمة، وحذفت ضمة الزاي لطروء الثانية المنقولة من اللام إليها. فهذا التّغيير في حركة الواو ثمّ حذفها إنّما يُعدّ نتيجة تجانس واوين متجاورتين إحداهما لام الفعل والثانية ضمير الجمع. ولمّا صعب على المتكلّم النّطق بالحرفين المتماثلين في مخرجهما وصفتهما متعاقبين. أثّرت واو الضمير في واو الفعل فحذفتها وتلوّنت بضمتها. فهذا تأثير صوتيّ محض لا علاقة له بالعمل النّحوي. ولا يكتفي ابن جني بهذا المثال المنفرد، فقد أورد عدة أفعال تجري في المجرى نفسه، وهي كلّها تغيّرت حركتها بسبب تأثير الحكم الطارئ على السابق.

وإذا نظرنا إلى القضية نفسها عند المتأخرين كالسيوطي لألفيناه يتعرّض لها في كتابه الأشباه والنظائر[29]، حيث أورد قولا لابن جني في موضوع الإتباع يؤكد هذا المنحى العلمي لنظرية العمل الصوتي.

فالإتباع كما هو متداول ومشهور إنّما هو إتباع الحركة السّابقة للحركة اللاحقة أو العكس. وذلك قصد التّجانس والتّشابه. فمن ذلك ما رواه ابن جني في قراءة من قرأ (الحمدُ ِللّه: الحمدِ ِللّه، أو الحمدُ ُلله) بإتباع الكسر أو الضّم، حيث مال قوم إلى جعل الدال محاكية لّلام في الكسر، فيكون التأثير رجعيا وتارة في الرفع (نحو: الحمدُ ُلله). وهذا تأثير تقدّميّ..

وما باب الإبدال والإعلال والقلب إلا تغيرات صوتية فونولوجية تزيدنا تأكيدا على أن العمل الصوتي هو أساس هذه التّبدّلات الصّرفية. فتاء افتعل إذا أعقبت صادا تقلب طاء (اصتاد ← اصطاد) وذلك حتى يتحقّق التّجانس بين الصاد والطاء المفخّمتين، فتتوازيان في الاستعلاء والقوة، ويختفي ذلك الثقل الصوتي الذي ينعكس، لو اجتمعت الصاد بالتاء في

بنائهما الأصلي المنهيّ عنه سليقةً بسبب تفخيم واستعلاء الأولى (الصاد) وترقيق واستفالة الثانية (التاء).

وإنّ قلب الواو والياء المتطرفتين همزة من عمل الأصوات في بعضها البعض، وقد تفطن إلى ذلك علماؤنا الأوّلون وأوردوا أمثلة لغوية متنوعة توضّحه وتؤكّده. فمن ذلك (ردّ واو سماو وياء قضاي همزة، (فتغدو سماء، وقضاء على التوالي) لأنّ اجتماع الألف اللينة مع الواو أو الياء منفور منه نطقا، بسبب تجاور المخرج الصدري الحنجري العميق للألف اللينة، الذي لا يتجانس مع الواو الشفوية أو الياء الشجرية، فقلبتا (أي الواو، والياء) همزة، لأنها (أي الهمزة) أخت الألف اللينة في صفتي الجهر والشدة، ومجاورة لها في المخرج الصوتي، فالهمزة حلقية من أقصاه، وألف اللين حنجرية. وبهذا الشكل، فإنّ المتكلم سيُنشئ - نُطقا- صوتين متتابعين متجاورين في المخرج متآلفين في الهيئة الفونولوجية (الجهر). ويختفي بذلك التّنافر الصّوتي الذي بات واضحا في البنية الأصلية المتروك ذكرها في لسان العرب الفصيح (سماو، قضاي).

فعندي إذًا إنّ هذا التغيير الفونولوجي بين الأصوات اللّغوية المتجاورة اقتضاه تأثير الحروف على بعضها، ما يؤكد بلا شك أنّ ثمّة عاملا صوتيا هو المؤثر على حروف الكلمات وحركاتها، قد يكون سابقا تاريخيا للعامل النحوي المُوجد للوظائف النحوية المنبئة عن المعاني.

ب- عند علماء القراءات: والجدير بالذكر هاهنا أنّ علماء القراءات أنفسهم قد تنبّهوا إلى هذه الظاهرة بحسّهم المرهف، وذلك فيما كانوا يؤدونه من تلاوة وتجويد القرآن الكريم. فقد تبيّن لهم أنّ الحرف يتأثر بما يجاوره داخل السلسلة اللغوية (أي الكلمة)، فيتشكّل بذلك تركيب لغوي مفرد جديد. ومن أمثلة ذلك أن الألف تتلوّن بحسب ما قبلها من أصوات، فإن أَتبعت حرفا مفخما (ص، ض، ط، ظ) تفخمت واستعلى فيها اللسان نحو الحنك، وإن أعقبت حرفا منخفضا* رُقّقت وذلك في نحو [صادَق ≠ سابَق/أصلٌ ≠ أهلٌ]، فالأولى مفخمة قويّة والثانية مرققة ضعيفة.

والهمزة تفقد بعض نبرها إذا بدئ بها في اللفظ، للحركة التي تلابسها. خاصة إذا جاء بعدها حرف استعلاء وتفخيم. وتحتفظ بشدّتها فيما دون ذلك، وتزداد نبرا مع السّكون. واللام أيضا تتلوّن بما يجاورها من حروف، فهي في لفظ الجلالة (اللّهُ) مفخّمة وإن وقعت بعد كسر أو ياء (مثل باللّه) زال عنها التفخيم وصارت إلى الرقة والانخفاض.

ومن ذلك أيضا إبدال القراء النون ميما بغنة أي بصويت يتسرّب من التجويف الأنفي نتيجة انغلاق المجرى الفموي بسبب انخفاض اللهاة، كلّما أعقبتها باء ساكنة (انبرى ⟵ امبرى ⟵ امرّى)(30)

فكلّ حرف يتشكّل تصويته تبعاً لما قبله أي تبعا لما يتصدّره من حركات أو حروف أو نبر أو تخفيف... الخ.

فهذا كلّه قانون صوتي انعكس وتبدّى في الحروف قبل أن يدخل التركيب المستقيم فيقول به النحويون. ولربّ سائلٍ يسأل، فيقول كيف؟ فنجيب:

إذا كان الصّوت أسبق من الكلمة، وإذا كان الإنسان ينطق به قبل أن يلفظ بالوحدة المفردة (الكلمة)، وإذا كانت هذه الأخيرة هي ناتجة عن تجاور عدّة حروف: أفلا يؤكد هذا أنّ العامل في الكلمة ظهر ابتداءً في الحركة والحرف (الصوت). وهذاً أول مستوى من مستويات اللغة، ثمّ انتقل مفهومه بعد ذلك إلى الكلمة، خاصة وأنّ اللغويين القدامى قد تفطنوا لهذه الظاهرة الصوتية حين نظرهم في تجانس الحروف وتشاكلها وتماثلها أو اختلافها. وَلْنَعُد إلى ابن السّكيت أو الزجاجي أو ابن جني - وغيرهم كثيرون - ليثبت عندنا هذا الفرض... وهوَ طلب الحرف للحرف وتأثير الحركة في أختها من أجل تمكين التفاعل والانسجام الصوتي. وهدا ضرب آخر من العمل في النظرية اللسانية العربية

هوامش المقال:

---

(1) جلال الدين السيوطي: الأشباه والنظائر، تحقيق طه عبد الرؤوف، شركة الطباعة الفنية القاهرة، ج2، ص 20

(2) جمال الدين الفاكهي: شرح الحدود النحوية، تحقيق محمد الطيب الإبراهيم، دار النفائس، بيروت، ص 60

(3) ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة المطبعة، الرحمانية، مصر، ط1، ، 1939 ص 13 ورسائل إخوان الصفا، مطبعة الرغاية الجزائر، 1986، ج3، ص 94.

(4) نفسه ص 86.

(5) نفسه، ص 93

(6) نفسه، ج3ص94.

(7) نفسه، ص116.

(8) نفسه ج3 ص 117.

(9) ابن سنان الخفاجي سر الفصاحة، ص 15.

(10) ابن النديم الفهرست، ص 45.

(11) الخليل الفراهيدي معجم العين، : تحقيق الدكتور عبد الله درويش مطبعة العاني بغداد، ج1 ص 53.

(12) ابن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1954، ج1، ص 6.

(13) فخر الدين الرازي مفاتيح الغيب، المطبعة الحسينية المصرية القاهرة، ج1 ص، 16.

(14) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب بيروت، ج4، ص43.

(15) نفسه، ص 436.

(16) ابن يعيش "شرح المفصل، عالم الكتب، مكتبة المتنبي مصر، ج10، ص 124.

(17) ابن منظور: معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد 5، مادة عمل، ص772.

(18) الجرجاني: مخطوطة العوامل المائة رقم 40، المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر، ص 10.

(19) المرجع نفسه، ص 10.

(20) متن الأجرومية لابن أجروم مخطوط، ص 4.

(21) سيبويه: الكتاب تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، ط1966، ج1، ص4.

(22) ينظر الموضوع في: ابن مضاء القرطبي: الردّ على النّحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ط2، 1982، ص 24، ومهدي المخزومي: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر ط2، 1958، ص 56. وسليمان ياقوت: ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها على القرآن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر1983، ص 38.

(23) الخليل الفراهيدي: معجم العين، ج2، ص 16.

(24) حول شروط العامل وموقف ابن جني، ينظر مثلا ابن هشام الأنصاري أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار الفكر اللبناني، ج1، ص 96 وما بعدها، وابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت ط2، ج2، ص 238. والسيوطي: الأشباه والنظائر، راجعه وقدم له فايز ترحييني، دار الكتاب العربي، ط4، 1984 ج3، ص 112.

*ينظر ما جاء في أعلى مقالنا.

(25) سيبويه، الكتاب ج 3 / 136.

(26) سيبويه، الكتاب ج 3 / 136.

(27) ابن جني: الخصائص، تحقيق علي النجار، ج 2 / 139.

(28) نفس المرجع السابق.

(29) ينظر كتابه: جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر، ج 2 / 33.

*الحروف المرققة هي كل حروف اللّسان البشري ماعدا حروف التّفخيم. (ص، ض، ط، ظ)

(30) ينظر كتاب جمال القراء وكمال الإقراء، ص 645 والنّشر في القراءات العشر ج 215/1 لابن الجزري